جولة
في كتاب « أبو الشهداء »

للاستاذ جمال مهدي الفتلاوي

(القاها في الحفلة التأبينية بيوم عاشوراء)
(التي اقامتها لجنة الاعمال الاجتماعيـة)
(بدار المعلمين الريفية ببغـــداد ...)

ها هو ذا ابو الشهداء ابو عبد الله الحسين عليـــه افضل الصلاة والسلام ، وقد صرخ صرخته الداوية في اذن الدهر يوم الطف ، وهو وحيد فريد ، فزعزع بصرخته هذه اركان الباطل وهو بـكامل العـــدة والعدد ، وصبغ ابن علي كربلاء بدمه القاني الزكي ، بذلك اليوم التاريخي العظيم ، على اثر ذلك الصراع العنيف الذي قام بين فريقين متضاديت ، فريق الفضيلة وفريق الرذيلة ، وظل صدى تلك الصرخة داويا في الافاق منذ مئات السنين ، يذكرنا بما محرم من كل عام ويذكرنا بتلك الفاجعة الفريدة التي غيرت التاريخ ، وظهرت نتائجها فيما بعد ، وباء المجرمون الذين اقترفوا هذه الجريمـــة النكراء بالخزي والعار .

ولكن مرور هذه السنين الطويلة ، على هذه الفاجعة ، لم يهيء لنا اولئك الذي يعطون لنا رأيهم القاطع فيها على الصورة الصحيحـة ، دون ان يتحيزوا لجانب ، او يتأثروا بعوامل ، رغم ما كتب عنها ، وما اخرج للناس من مؤلفات ، في حين انها هي ذلك الصراط الذي يسلكه كل خارج على مغتصب ، او ناهض في وجه ظالم ، وكما انها ذلك المنهل الذي يرشف منه كل شاعر او ناثر عندما يريد ان يخرج صورة صحيحة واضحة عن المثل العليـا ، الى ان جاء نابغة مصر وعبقريها الكاتب الكبير الاستاذ العقاد واخرج كتابه « ابو الشهداء » منذ حين ، ذلك الكتاب الذي هو بحق خير ما اخرج الى الان عن هذه الفاجعة وعن بطلها المغوار ابي الشهداء (ع) تلك الفاجعة التي كانت الحد الفاصل بين النور والظلام او الفضيلة والرذيلة ، باسمى صور الاولى وابشع صور الثانية ، بشكل أظهر فيه الحق حقاً ، والبـاطل باطلا ، ذلك الكتاب الذي رأيتني وانا اشرف بالاشتراك في هذا الحفل التأبيني انه خير مجال اتجول خلاله ولو جولة قصيرة لاقتطف منه قبسات من هنا وهناك ، اقدمها في هذه المناسبة المؤلمة :—

يقول الاستاذ بصدد الكلام عن المفاضلة بين الخصمين : « ان كل خلاف جاز في المفاضلة بين علي « ع » ومعاوية غير جائز في المفاضلة بين الحسين « ع » ويزيد ، وانما الموقف الحاسم بينهما موقف الاريحية الصراح في مواجهة المنفعة الصراح وقد بلغ كلاهما من موقفه اقصى طرفيه وابعد غايتيه ، فانتصر الحسين عليه السلام باشرف ما في النفس الانسانية من غيرة على الحق وكراهة للنفاق والمداراة ، وانتصر يزيد بارذل ما في النفس الانسانيـة من جشع ومراء وخنوع لصغار المتع والاهواء ، وقد كان فتى عربيداً يقضي ليله ونهاره بين الخمور والطنابير ، ولا يفرغ من مجالس النساء والندمان الا ليهرع الى الصيد فيقضي فيه الاسبوع بعد الأسبوع بين الأديرة والبوادي والاجام » .

ثم بعد ذلك يصور لك اريحية اصحاب الحسين عليه السلام بصورة رائعة في قول احد اصحابه وكيف انهم ابوا الا ان يموتوا معه او يموتوا دونه ، عندما اذن لهم ان يتفرقوا تحت جنح الليل حيث يقول :

« قال مسلم بن عوسجة الاسدي يجيب الحسين عليه السلام انحن نتخلى عنك وبم نعتذر الى الله في اداء حقك ؟ ؟ اما والله لا افارقك حتى اكسر في صدورهم رمحي واضربهم بسيفي ما بقي قائمه بيدي ، ولو لم يكن معي سلاح لقذفتهم بالحجارة دونك حتى اموت معك ، وقدبر بقسمه وبقي ومات ، وبهـذا الخصوص ايضاً [فلما بقي الحسين — ع — في الكوفه نادي واليها ابن زياد الى الصلاة الجـامعة وصعد الى المنبر وخطب القوم فقـــال : — الحمد لله الذي اظهر الحق واهله ونصر امير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب [illegible] حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير وقد ذهبت احدى عينيه يوم اليمن وذهبت الاخرى يوم صفين فصاح بالوالي غـداة يوم انتصاره وزهوه : مرجانة أتقتل ابناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟؟ .. انما

الكذاب انت وابوك والذي ولاك وابوه) فما طلع عليه الصباح الا وهو مصلوب . . الى هذا الافق الاعلى من الاريحية والنخوة ارتفعت بالنفس نصرة الحسين . والى الاغوار المرذولة من الخسة والاثرة هبطت بالنفس الانسانية نصرة يزيد وحسبك من خسة ناصريه انهم كانوا يجزون بالحطام وهتك الاعراض على غزو المدينة النبوية واستباحة ذمارها فيسرعون الى الجزاء . .)

ثم يصف لك الاستاذ بيت ابي سفيان ويتكلم شيئاً عن عن معاوية وبعده عن يزيد ومنه تتكون لديك الفكرة التامة عن حقيقة هؤلاء حيث يقول :

[وبيت ابي سفيان بيت سيادة مرعية لامراء فيها ولكن الحقيقة التي ينبغي ان تذكر هنا ان معاوية بن ابي سفيان لم يكن ليرث شيئاً من هذه السيادة التي كان قوامها كله وفرة المال ، ويروي ان امرأة استشارت النبي ـ ص ـ في التزوج من معاوية فقال لها :

ـ انه صعلوك ـ كذلك ينبغي ذكر حقيقة اخرى في هذا المقام وهي ان معاوية لم يكن من كتاب الوحي كما اشاع خدام دولته بعد صدر الاسلام ، ولكنه كان يكتب للنبي ص في عامة الحوائج وفي اثبات ما يجبي من الصدقات ولم يسمع عن ثقة قط انه كتب شيئاً من آيات القرآن الكريم ، وكانت له صفات محمودة ولكنه على هذا كله كان لا يملك حلمه في فلتات تميد بالملك الراسخ ، ومنها قتله حجراً ابن عدي وستة من اصحابه لانهم كانوا ينكرون سب علي عليه السلام وشيعته فما زال بقية حياته يندم على هذه الفعلة ويقول : ما قتلت احدا الا وانا اعرف فيم قتلته ما خلا حجرا فاني لا اعرف بأي ذنب قتلته .]

ثم يستطرد في الكلام عن يزيد فيقول : [ولكن الروايات لم تجمع على شيء كاجماعها على ادمانه الخمر وشغفه باللذات وتوانيه عن العظائم وقد مات بذات الجنب وهو لما يتجاوز السابعة والثلاثين ولعلها اصابة الكبد من ادمانه الشراب والانغماس في اللذات ولا يعقل ان يكون هذا كله اختلاقا واختراعا من الاعداء لان الناس لم يختلقوا مثل ذلك على ابيه او على عمرو بن العاص وهما بغيضان اشد البغض لاعداء الامويين ، ولم يكن هذا التخلف في يزيد ، يقصد به الاستاذ التخلف عن العظائم ، من هزال في البنية او سقم اعتراه كذلك السقم الذي يعتري احيانا بقايا السلالات التي تهم بالانقراض والدثور ولكنه كان هزالا في الاخلاق وسقما في الطوية ، وعلى فرط ولعه بالطراد حين يكون الطراد لهواً وفراغا كانت همته الوانية تفتر عن الطراد حين تتسابق اليه عزائم الفرسان في ميادين القتال ، ولو كان دفاعا عن دينه ودنياه ...]

وبعد ان اوضح لنا حقيقة هذا الرجل الذي كان خصم ابي عبد الله ـ ع ـ يبين لنا متعجبا كيف يطلب الى الحسين عليه السلام مبايعته وتزكيته امام المسلمين فيقول : ـ

[واعجب شيء ان يطلب الى الحسين بن علي ـ ع ـ أن يبايع مثل هذا الرجل ويزكيه امام المسلمين ويشهد له عندهم انه نعم الخليفة المأمول صاحب الحق في الخلافة وصاحب القدرة عليها ، ولا مناص للحسين (ع) من خصلتين هذه او الخروج لانهم لن يتركوه بمعزل عن الامر لا له ولا عليه . . إن بعض المؤرخين من المستشرقين وضعاف الفهم من الشرقيين ينسون هذه الحقيقة ولا يولونها نصيبها من الرجحان في كف الميزان .]

ثم يقول : (فالملك يزيد لم يقم على شيء واحد يرضاه الحسين لدينه او لشرفه او للامة الاسلامية ، ومن طلب منه ان ينصر هذا الملك انما يطلب منه ان ينصر ملكا ينكر كل دعواه ولا يحمد له حالة من الاحوال ولا ننسى بعد هذا كله ان هذا الملك كان يقرر دعائمه في اذهان الناس بالغض من الحسين (ع) في سمعة ابيه وكرامة شيعته ومريديه]

ثم بين لنا الاستاذ ما حاق بمن قابل الحسين ـ ع ـ في كربلا وما اصاب الدولة الاموية بعد الفاجعة فيقول :

(ولم تنقض ست سنوات على مصرع الحسين حتى حاق الجزاء بكل رجل اصابه في كربلاء ، فلم يكد يسلم منهم احد من القتل والتنكيل مع سوء السمعة ووسواس الضمير ، ولم تعمر دولة بني امية بعدها عمر رجل واحد مديد الاجل ، فلم يتم لها بعد مصرع الحسين نيف وستون سنة !! وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذي سكن في جثمان هذه الدولة حتى قضى عليها واصبحت ثارات الحسين نداء كل دولة تفتح لها طريقا الى الاسماع والقلوب .)

واستطرد الاستاذ العقاد في الكلام عن كربلاء موقع الفاجعة وبيان قيمتها حيث يقول :

[فهي اليوم حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى ويزوره غير المسلمين للنظر والمشاهدة ، ولكنها لو اعطيت حقها من التنويه والتخليد لحق لها ان تصبح مزاراً لكل آدمي يعرف لبني نوعه نصيبا من القداسة وحظا من الفضيلة ، لاننا لا نذكر بقعة من بقاع هـــذه الارض يقترن اسمها بجملة من الفضائل والمناقب اسمى والزم لنوع الانسان من تلك التي اقترنت باسم كربلا بعد مصرع الحسين فيها . فكل صفة من تلك الصفات العلوية التي بها الانسان انسان وبغيرها لا يحسب غير ضرب من الحيوان السائم — فهي مقرونة في الذاكرة بايام الحسين في تلك البقعة الجرداء . فما اظلت قبة السماء مكانا قط هو اشرف من تلك التلاع بما حوته من معنى الشهادة وذكرى الشهداء .]

ثم بعد ان بين منزلة كربلاء واهميتها يقوم باستعراض عام فيقدم لنا صوراً عن اصحابه الذين استشهدوا معه (ع) هي غاية في النبل والشهامة التي تنطوي عليها اولئك النفر من الاصحاب بقابلها الضعة في النفوس والخسة في الصفات والاخلاق عند الخصوم فيقول :

(جيء الى رجل من اصحابه الغرباء بنبأ عن ابنه في فتنة الديلم فعلم ان الديلم اسروه ولا يفكون اساره بغير فداء ، فاذن له الحسين ع ان ينصرف وهو في حل من بيعته ويعطيه فداء لابنه ، فابى الرجل اباءً شديدا وقال : عند الله احتسبه ونفسي ثم قال للحسين عليه السلام : هيهات ان افارقك ثم اسأل الركبان عن خبرك . لايكن والله هذا ابدا) الى ان يأتي ويصف لك حالة الحسين تجاه عائلته ليلة القتال والتي بها يعبر لك بصورة جلية عن صبر هذا البطل وعزيمته الماضية في سبيل الوقوف امام الباطل فيقول :

وجلس ليلة القتال في خيمته يعالج سهاما له بين يديه ويرتجز وامامه ابنه العليل :

يا دهر اف لك من خليل كم لك بالاشراق والاصيل
من صاحب وماجد قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
والامر في ذاك الى الجليل وكل حي سالك سبيلي

فرد ابنه عبرته لكيلا يزيده ألماً على ألمه ، وسمعته اخته زينب فلم تقو على حنانها ووجلها وخرجت اليه من خبائها حاسرة تنادي وا ثكلاه !! اليوم مات جدي رسول الله وامي فاطمة الزهراء وابي علي واخي الحسن .. فليت الموت اعدمني الحياة يا حسيناه يا بقيه الماضين وثمالة الباقين ..!!

فبكى لبكائها ولم ينثن ذرة عن عزمه الذي بات عليه وقال لها : يا أخت .. هيهات لو ترك القطا لغفا ونام ... ولم يزل يناشدها ويعزيها وهو في قرارة نفسه مستقر كالطود على مواجهة الموت واباء التسليم او النزول على [حكم ابن مرجانة] كما قال . ثم احتملها مغشياً عليها حتى ادخلها الخباء ..)

ثم استطرد الاستاذ في الكلام عما جرى لعيال الحسين (ع) بعد الفاجعة مع عبيد الله بن زياد بعد ان طيف برأس الحسين (ع) وسائر الرؤوس الاخرى بانحاء الكوفة فيقول : (وادخلت السيدة زينب بنت علي (ع) ، وعليها ارذل ثيابها ، ومعها عيال الحسين (ع) واماؤها ، فجلست ناحية لا تتكلم ولا تنظر الى ما امامها فسأل ابن زياد : من هذه التي انحازت ناحية ومعها نساؤها ..؟؟

فلم تجب .. فاعاد سؤاله ثلاثا وهي لا تجيبه .. ثم اجابت عنها احدى الاماء .. هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله (ع)

فأجترأ ابن زياد قائلا : الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وابطل احدوثتكم .. فلم تمهل ابن زياد ان ثارت به قائلة : الحمد لله الذي اكرمنا بنبيه وطهرنا من الرجس تطهيراً ... انما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا والحمد لله .. فقال ابن زياد قد شفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة ..

فغلبها الحزن والغيظ من هذا التشفي الذي لا ناصر لها منه ، وقالت : لقد قتلت كهلي وابدت اهلي ، وقطعت فرعي واجتثثت اصلي ، فان يشفك هذا فقد اشتفيت ..

فتهاتف ابن زياد ساخراً وقال : هذه سجاعة .. لعمري لقد كان ابوها سجاعاً شاعراً ..

فقالت زينب : ان لي عن السجاعة لشغلا .. ما للمرأة والسجاعة ..

ثم بعد ان يبين الاستاذ ما دار بين ابن زياد وزينب عندما اراد قتل العليل علي بن الحسين (ع) وموقف زينب من ذلك ، وكيف انها تمكنت من الحيلولة دون ان ينفذ

رغبته ابن زياد وبذلك حفظت البقية الباقية من نسل الحسين وبعد ان يشرح ذلك ويشير الى ارسال الرؤوس صحبة العائلة الى دمشق، يختم كتابه بما اشرنا اليه في بداية الحديث وكيف ان هذه الفاجعة هي ذلك المنهل الذي يرتشف منه كل شاعر او ناثر عندما يريد ان يخرج صورة صحيحة واضحة عن المثل العليا فيستشهد بقول ابي العلاء المعري حيث قال في الفجر والشفق :ـ

وعلى الافق من دماء الشهيد ... بن علي ونجله شاهدان
فهما في اواخر الليل فجرا ... ن وفي اولياته شفقان
ثبتا في قميصه ليجيء الحش ... ر مستعديا الى الرحمن

واخيراً يا ابن الزهراء : لقد تركت لنا في سيرتك عظات وفي استشهادك في سبيل المثل العليا عبرا ، فسلام عليك يوم ولدت ويوم استشهدت وعلى صحبك الذين استشهدوا معك جميعاً ... ففي روح كل مصلح بدوات من روحك . وفي ضمير كل مجاهد قبس من ضيائك ...

ولئن لم يفقه بعض صغار العقول وضعاف النفوس ووضيعي الاخلاق سر مصيبتك وما أملته من دروس على العالم في كتاب المجد والعظمة ، ولئن لم يفقه ذلك اولئك الذين ضربت على اعينهم غشاوة فلا عجب ، فالشمس قد ينكرها رمد العيون ، والماء النمير ، قد ينكر طعمه الشخص المريض وقديما قال القائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

او كما يقول الشاعر العلوي ابو الطيب :

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مراً به الماء الزلالا

وستظل فاجعتك يا اخا زينب مع الدهر ..

ستظل ذكراها دائرة مع الفلك يبزغ نورها من جديد كل عام ببزوغ هلال محرم ..

ستظل مع التاريخ، تعلمنا المبادئ السامية والمثل العليا تعلمنا كيف يجب ان يكون الذود عن العقيدة والدفاع عن الكرامة ..

تعلمنا كيف يجب ان نحيا .. وكيف يجب ان يكون العمل في طلب الحرية والوصول الى احقاق الحق وابطال الباطل .

تعلمنا كيف يجب ان يكون تبذل الذل والاستعباد ..

تعلمنا كيف يجب ان يكون الصمود تجاه المبدأ ..

وتهدينا طريق الخلود ..

فالسلام عليك ياسيدي ويا مولاي من عبدك المؤمن المخلص وعلى الذين خروا صرعى بين يديك ، والف تحية وسلام ..

بغداد — جمال مهدي الهنداوي

من وحي الحسين

صدى كربلاء !...

للاديب محمد هاشم الجواهري

صوت تعالى فملأ الكون اصداء ... باسم الفضيلة .. والايام اصداء
بمثنه خين لا اهل ولا وطن ... وحال دونهما . . جيش وصحراء

*

هذي حواليك اشلاء مبعثرة ... ضجت لمصرعها سحب ورمضاء
هامت الى جسمك الدامي تودعه ... بلهفة واشتياق فيك حوراء
تركتها ودموع العين حائرة ... وما لها بعد ما فارقت اغفاء

*

يامن رفعت لواء النصر مندفعاً ... الى الجهاد . . احاطتك الارقاء
قم واستعد مزمات ما برحت لها ... فذي فلسطين للاعداء ارجاء
لها على [القدس] قلب بات منصدعا ... وناظر في مجالي الحرب بكاء

*

هل مشعل يا ربيب الوحي تمنحه ... لنا ، فتشرق آفاق وأجواء
يحيي على ظلمات الجهل معظمنا ... وغيرنا في رحاب النور احياء

*

البصرة : محمد هاشم الجواهري